أثر العقل في بناء المعرفة: قراءة في كتاب دلائل الإعجاز/ للإمام عبد القاهر الجرجاني ٤٧١هـ

مقدم للمؤتمر العلمي الدولي الأول في كلية اللغة العربية بالمنوفية ٢٠١٧م

إعداد:

الأستاذ الدكتور

السيد محمد سلام

أستاذ البلاغة والنقد وعميد الكلية

ض

بسم الله الرحمن الرحيم

ض

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة :

الحمد لله الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم، وكرَّمه أفضل تكريم، وعلمه ما لم يكن يعلم، والصلاة والسلام على من أوتي جوامع الكلم، واختصر له الكلام اختصاراً، وعلى آله وأصحابه، ومن تبعهم إلى يوم الدين.

وبعد:

فمباني كل كلام تدل على معانيه، ولكن صياغة المباني في الكلام المعجز ليس لها مثيل، وكذلك تنفرد معانيه، فرصفه عجيب، ومزاياه عظيمة باهرة، وقد توصل الإمام عبد القاهر إلى ذلك بأَخَرَةٍ حتى تبيّن له الذي أعجز العرب، وهم أهل لسان فقال: "أعجزتهم مزايا ظهرت لهم في نظمه، وخصائص صادفوها في سياق لفظه، وبدائع راعتهم من مبادئ آيه ومقاطعها، ومجاري ألفاظها ومواقعها .. إلى أن قال: وجدوا اتساقاً بهر العقول، وأعجز الجمهور، ونظاماً والتئاماً، واتقاناً وإحكاماً .."(١). ثم بين أن هذه اللطائف، وتلك الأسرار التي توصل إليها العقل، أساس معرفتها: الروية والفكر، وكذلك هما أساس نموها، وارتقائها، والعلم ينمو بالتدبر، ويرتقي بالتفكير وحسن التأمل .. ولا يزال كذلك إلى أن "يَبْعُدَ الشأو في ذلك

---

(١) دلائل الإعجاز. صـ٣٩. تحقيق/ الشيخ محمود شاكر.

وتمتد الغاية، ويعلو المرتقي، ويعز المطلب حتى ينتهي الأمر إلى الإعجاز، وإلى أن يخْرج من طوق البشر"(١).

وأساس كل ذلك طول التجارب، ومعايشة العلم الذي به ينمو العقل، ويرتقي الفكر حتى يعرف مزايا كل كلام، وقد أفاد عبد القاهر من تراث السابقين ما أفاد، وبرع في النحو وألف فيه، ثم رأى أن صنيعه في دلائل الإعجاز قائم على أصول النحو جملة .. فصاغ هذا البيان ليكون دليلاً على هذا الذي توصل إليه، والذي دلنا عليه من أن كلام الله فيه من المزايا ما لا تصل إليه مُنَنُ البشر .. وأن بناء هذه المعرفة لا يكون إلا بتحريك الخاطر، وإعمال العقل وانشغال الفكر بالتدبر، والتأمل .. فإذا كان العلم هو ذروة الفضائل وسَنامها، فإن العقل أسُّها، وينبوعها، وهو أساس تميز الإنسان من سائر الكائنات، ومن ثم فكلُّ حكمة تصدر عنه، وكل فضيلة لا تكون إلا منه، وبه نعمة البيان تجلت، وبقوة استخدامه الأهواءُ ولَّت؛ لأنه هو الذي يهدي إلى كل هدى، ويرد عن كل ردى، ولذلك قيل سمي العقل عقلاً تشبيها بعقل الناقة؛ لأنه يمنع الإنسان من الشهوات إذا قبحت، كما يمنع العقال الناقة من الشرود، وجاء في الحديث الشريف "دعامة الدين وأساسه المعرفة بالله، واليقين، والعقل النافع، قيل: وما العقل النافع؟ قال: الكف عن معاصي الله، والحرص على طاعة الله عز وجل"(٢) رواه الديلمي عن عائشة، وفي الحديث أيضاً "ما اكتسب المرء مثل عقل يهدي صاحبه إلى هدى ويرده عن ردى"(٣).

---

(١) المصدر السابق. صـ٧.

(٢) كنز العمال عن سنن الأقوال الأفعال للمتقي الهندي ٣/٣٧٩ رقم ٧٠٤٧.

(٣) السابق. رقم ٧٠٣٧.

ونسب إلى علي بن أبي طالب أنه قال:

وأفضل قَسْمِ الله للمرء عقلُه * فليس من الأشياء شيءٍ يقاربه**

إذا أكمل الرحمن للمرء عقله * فقد كملت أخلاقه ومآربه**

والإمام عبد القاهر إذا ذكر العقل في كتاب دلائل الإعجاز يقول مثلاً "اقتداح زناد العقل"، و "حتى يصدر في كل أمره عن العقل .." و "لطائف مستقاها العقل"، و "شيء في سوس العقل .."، و "وبمقتف رسماً من العقل"، و "وتلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل"، و "ويدرك بالعقل ويستنبط بالفكر .." ونحو ذلك مما يدل على أنه الركيزة في استنباط المعرفة على الوجه الذي يرضي ، حتى يصل الأمر إلى الوجه الذي به بهر القرآن وقهر ... ومن ثم كان بحثي هذا مقيداً بالقراءة في كتاب "دلائل الإعجاز" أردت به إبراز هذا الأثر للعقل في بناء المعرفة التي توصل إليها عبد القاهر بأَخَرةٍ، كما قال. مهدت له بتمهيد حول تعريف العقل عند علماء اللغة، ثم المعنى الاصطلاحي المستمد من المعنى اللغوي، وكيف جعل الباقلاني – وهو من علماء الإعجاز – ركاكة العقل من أبرز أسباب الحيف عن معرفة الإعجاز –كما سيأتي في التمهيد – .. وبعد هذا التمهيد ذكرت مبحثين فقط كنموذج لهذا الأثر في بيان الإمام عبد القاهر من خلال كتابه هذا، جاء المبحث الأول يبين علاقة مقدمات الكتاب ببنائه، لمَّا رأيتها كالحصون له، تجمع الأفكار، وتجملها ببرعة لم أقرأ لها نظيراً عند علماء البلاغة قبله أو بعده ..

ثم المبحث الثاني بعنوان: مقدمات فصول الكتاب معاقل لها، بينت فيه أنواع هذه المقدمات، وأخذت منها – أيضاً – نماذج تدل على ما أريد تبيانه، وأنها تختلف عن مقدمات الكتاب في أن الأولى تتعلق بالكتاب

جملة أما هذه، فكل منها يجمع أفكار فصله أيضاً بطريقة لم أعرف لها مثيلا في قوة المعنى وبراعة اللفظ، وإجمال المراد الذي تم تفصيله فيما بعد.

وهذا الذي ذكرته لم يُغْلق باب الدراسة في الموضوع، وإنما يفتح فيه مجالاً لمن أراد تفصيل طرائق استنباط المعرفة عند الإمام، وعلاقة العقل بمعرفة أسرار الإعجاز. ..

ثم أهم النتائج وأهم المصادر التي ساعدت في الوصول إلى المراد.

والله من وراء القصد وهو نعم المولى ونعم النصير.

أ.د/ السيد محمد سلام

تمهيد:

تعريف العقل وأهميته في بناء المعرفة

يقول ابن فارس : العين والقاف واللام أصل واحد منقاس مضطرد، يدل عُظْمُه على محبْةٍ في الشيء أو ما يقارب الحبْسة، من ذلك العقل، وهو الحابس عن ذميم القول والفعل، قال الخليل: العقل: نقيض الجهل، يقال عقل يعقل عقلاً إذا عرف ما كان يجهله قبل، أو انزجر عما كان يفعله، وجمعه عقول ... ومن الباب: المعقل، والعَقل وهو الحِصن، قال أمية من الوافر:

وقد أعددت للحِدْثان صعباً *** ولو أن المرء تنفعه العقول

يريد الحصون ...[١].

ويقول ابن منظور: العقل: الحِجْرُ والنُّهَي ضد الحُمْقِ ... وهو مصدر، قال سيبويه: هو صفة .. ابن الأنباري: رجل عاقل، وهو الجامع لأمره ورأيه ، مأخوذ من عقلت البعير إذا جمعت قوائمه، قيل: العاقل الذي يحبس نفسه ويَردُّهَا عن هواها.

أُخذ من قولهم: قد اعتُقل لسانه إذا حُبِس ومنع الكلام ...

وسمى العقل عقلاً؛ لأنه يعقل صاحبه عن التورط في المهالك أي يحبسه، وقيل: العقل هو: التميز الذي به يتميز الإنسان من سائر الحيوان[٢].

وقيل سمي بذلك تشبيها بعقل الناقة؛ لأنه يمنع الإنسان من الإقدام على الشهوات إذا قبحت كما يمنع العقال الناقة من الشرود[٣].

---

(١) مقاييس اللغة (عقل).

(٢) ينظر: لسان العرب (عقل).

(٣) ينظر: أدب الدنيا والدين للحسن البصري. صـ٩.

يؤخذ من هذا أن الدلالة اللغوية لمادة العين والقاف واللام تدل على الحبس، والحصن، والملجأ وهذا يحفظ من الحمق، والطيش والتغلب ويُبنى من ذلك المعنى الاصطلاحي، بالنظر في كلام العلماء أيضاً كما يأتي .

قال الفيروز أبادي: والحق أنه نور روحاني به تُدرك النفس العلوم الضرورية، وابتداء وجوده عند اجتنان الولد ثم لا يزال ينمو إلى أن يكتمل عند البلوغ[1].

وقال الراغب الأصفهاني: العقل يقال للقوة المتهيئة لقبول العلم ويقال للعلم الذي يستفيده الإنسان بتلك القوة : عقل .

ولهذا قال أمير المؤمنين رضي الله عنه:

العقل عقلان *** مطبوع ومسموعُ

ولا ينفع مَسْموعٌ *** إذا لم يك مطبوعُ

كما لا ينفع ضوء الشمس *** وضوء العين ممنوع

وإلي الأول أشار صلى الله عليه وسلم بقوله: "ما خلق الله خلقاً أكرم عليه من العقل" وإلى الثاني أشار بقوله: "ما كسب أحد شيئاً أفضل من عقل يهديه إلى هُدىً أويرده عَن ردىً"، وهذا العقل هو المعنيُّ بقوله ﴿وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ﴾ أو يرده عن ردى " وهذا العقل هو المعني بقوله تعالى " وما يعقلها إلا العالمون "

وكل موضع ذم الله فيه الكفار بعدم العقل فإشارة إلى الثاني دون الأول ...[2].

(١) القاموس المحيط (عقل).

(٢) المفردات في غريب القرآن (عقل).

وقيل: هو إدراك الشيء لما يعرض من العوارض الجزئية الملحقة بسبب المادة في الوجود الخارجي من الكم ، والكيف ، والأين ، والوضع ، وغير ذلك(١).

وقيل: إنه نور يضاء به طريق يبتدأ به من حيث ينتهي إليه درك الحواس(٢)، أي أن العقل يبدأ من حيث تنتهي الحواس.

وقال الأشعري: هو العلم ببعض الضروريات الذي سميناه بالعقل بالملكة .

وقال الإمام الرازي: والظاهر أن العقل صفة غريزية يلزمها العلم بالضروريات عند سلامة الآلات، وهي الحواس الظاهرة والباطنة، وإنما اعتبر قيد سلامة الآلات؛ لأن النائم لم يَزُل عقله عنه، وإن لم يكن عالماً حالة النوم لاختلال وقع في الآلات، وكذا الحال في اليقظات الذي لا يستحضر شيئاً من العلوم الضرورية لدهش ورد عليه .

فظهر أن العقل ليس العلم بالضروريات .. بل صفة غريزية يتبعها تلك العلوم .. وهذا معنى ما قيل قوة للنفس بها تتمكن من إدراك الحقائق، ومحل تلك القوة قيل: الرأس، وقيل القلب(٣).

وأرى أن هذا القول الأخير هو التعريف الأمثل للعقل، والجامع لما مضى من أقوال ؛ لأن تلك القوة تكون هي الصفة الغريزية ، وهي النور الذي تدرك به النفس سائر الأشياء ، وتميز الحسن من غيره، وتعرف منازل الأشياء ودرجاتها، وبه ميز الله الإنسان حين خلقه وامتن عليه بتلك النعمة، نعمة البيان ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ * عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ * ﴾سورة الرحمن الآيتان (٣، ٤).

---

(١) ينظر: كشاف اصطلاحات الفنون لمحمد بن التهانوي ١١٩٤/٢.

(٢) كشف الأسرار لشرح المنار للنسفي ٣١/٢.

(٣) ينظر: كشاف اصطلاحات الفنون ١٢٠٠/٢.

وقال حكيم: العقل حياة الروح، والروح حياة الجسد، وقال حكيم: ركب الله في الملائكة العقل بلا شهوة، وركب في البهائم الشهوة بلا عقل وفي ابن آدم كليهما، فمن غلب عقله شهوته فهو خير من الملائكة ، ومن غلب شهوته عقله، فهو شر من البهائم(١).

هذا هو مقياس حقائق الأمور وأسُّ فضائلها ، كما قال الحسن البصري "وأسُّ الفضائل، وينبوع الآداب هو العقل الذي جعله الله تعالى للدين أصلاً وللدنيا عماداً" فأوجب التكليف بكماله ... فإذا تم في الإنسان سمي عاقلاً، وخرج به إلى حد الكمال كما قال صالح بن عبد القدوس:

إذا تم عقل المرء تمت أموره وتمت أمانيه وتم بناؤه

ومن ثم يكون إدراك المزايا في الكلام، ومعرفة بيان من بيان ، بل وبناء البيان كله يكون على قدر هذا النور الذي غرسه الحق في الإنسان ، وعلى قدر توجيه الإنسان له، ولذلك رأينا كيف يدرك الإنسان فضل كلام على كلام في بناء الإمام عبد القاهر لدلائل الإعجاز الذي أثبت فيه أنه لا يكون إعجاز حتى تثبت مزايا تفوق منن البشر، وأن إدراك ذلك لا يكون إلا بالإحاطة بكل ما جمعه من فصول يدّرجها واحداً تلو الآخر.

ومن هنا يقول الباقلاني: "فإذا اشتبه على متأدب أو متشاعر أو ناشئ أومر مد فصاحة القرآن، وموقع بلاغته، وعجيب براعته، فما عليك منه، إنما يخبر عن نقصه، ويدل على عجزه، ويبين عن جهله، ويصرح بسخافة فهمه وركاكة عقله"(٢).

فركاكة العقل سبب من أسباب حيفه عن فهم الإعجاز من خلال دراسة بلاغة الكلام التي تكوَّن منها، فالعلم يترجم خبايا العقل كما قال سهل بن هارون "العقل رائد الروح، والعلم رائد العقل والبيان ترجمان العلم"(٣).

---

(١) السابق. ١٢٠١/٢.

(٢) إعجاز القرآن ١/ ١٢٥.

(٣) البيان والتبيين للجاحظ. تحقيق/ فوزي عطوى. درا صعب.

والموضوع الذي يتحدث فيه الإمام عبد القاهر، جاء بأخرة بعد طول دراسة وقوة ممارسة لصفة الكلام وفهم المعنى، ومعنى المعنى فليس الأمر بالهوينا وهذا هو قوله "وقد وصلت بأخرة .."

فطول الممارسة رأس المسألة، وأساس الوصول إلى المراد، ولن نصل إلى ما وصل هو إليه إلا بعد معرفة هذه الفصول التي بُنى عليها الكتاب.

وعليه فالموضوع يحتاج إلى مقدمات تُقدم، وجاء هذا التدرج في بعض الوصايا كوصية عبد الملك بن صالح العباسي لابنه (.. ولقاح المعرفة دراسة العلم، وطول التجارب زيادة في العقل، والقناعة راحة الأبدان، والشرف التقوى، والبلاغة معرفة رتق الكلام وفتقه، بالعقل تستخرج الحكمة، وبالحلم يستخرج نمو العقل .." [(١)].

من خلال ما سبق، وغيره مما قرأته ووعيته، ولم أكتبه من كلام يتعلق بأهمية التدبر، والتعقل في فهم سمات البيان للوصول إلى أسرار الإعجاز الذي وصل إليه الإمام – كما قال – بأخرة، من خلال ذلك تتجلى أهمية العقل في بناء المعرفة، ذاك الذي اتكأ عليه الإمام بطول دربه وكثرة ممارسة، وتفريغ لب، وجمع عقل ، كما قال قُس بن ساعدة في بعض خطبه (... ثم انظر بسكون طائر، وخفض جناح، وتفريغ لب، وجمع عقل في ذلك فسيقع لك الفصل بين كلام الناس، وبين كلام رب العالمين، وتعلم أن نظم القرآن يخالف نظم كلام الآدميين، وتعلم الحد الذي يتفاوت بين كلام البليغ والبليغ، والخطيب والخطيب، والشاعر والشاعر، وبين نظم القرآن جملة" [(٢)].

---

(١) السابق. صـ٦٠٤.

(٢) إعجاز القرآن للباقلاني. صـ١٥٤.

فقد وضع قس هنا ضوابط الوصول التي بها بنى عبد القاهر بيانه ، ودلنا على طريق الوصول إلى مراده وهي: النظر بسكون طائر، أي برزانة وركانة، وقوة حلم، وخفض جناح، وتفريغ لب وجمع عقل ..

فهذه الطرق جمعت الحلم، والطمأنينة، والتواضع للعلم والتخلص للقضية كل هذا يدل على استجماع جميع القوى بعد تحصيل المعارف الدالة عليها، ليكون التمكن من استخراج الحقائق والوصول إلى معرفة حجة الله من الوجه الذي هو أَضْوأُ لها، والأمر كما قال الإمام يحتاج إلى تأمل، ومواظبة على التدبر، وإلى همة تأبى لك أن تقنع إلا بالتمام، وأن تربع إلا بعد بلوغ الغاية[1].

وهذا ما تكشفه الدراسة القادمة في تدليلها على أثر العقل في بناء المعرفة من خلال بعض ما ذكره الإمام عبد القاهر في دلائل الإعجاز.

والله الموفق للصواب ،والهادي إلى الحكمة وفصل الخطاب .

---

(١) ينظر دلائل الإعجاز. صـ٤٩.

المبحث الأول
مقدمات الكتاب وعلاقتها ببنائه

ض

تتألف هذه المقدمات من:

١- المدخل في دلائل الإعجاز من إملائه.
٢- فاتحة المصنف في مكانة العلم وبيان فضله.
٣- سبب تأليف الكتاب، والتمهيد في إعجاز القرآن إلى أن قال: "واعلم أن ههنا فصولاً يجيء بعضها في إثر بعض، وهذا أولها[١].

ثم تبدأ فصول الكتاب بتحقيق القول في البلاغة والفصاحة، وهذا ما جعله المتأخرون مدخلاً لدراسة علم المعاني (أول علوم البلاغة بعد تقسيمها).

***

ونعود إلى المدخل الذي أملاه ، وبين فيه خلاصة فكره طيلة حياته السابقة على كتابة ما كتبه هنا، وجمعه عقله ووعته بصيرته حتى نما وصار علماً اقتضت الحياة العلمية والفكرية إخراجه للناس ، يشفي به غليل نفسه أولاً ، ثم يرد به على من لا يكاد يفرق بين كلام وكلام، ولاسيما بين كلام البشر ، وكلام خالق البشر، والذي "ليس كمثله شيء" حتما سيكون كلامه كذلك ليس كمثله لكلام، ولكن كيف يدرك الناس ذلك ، وكيف يصلون إلى هذه الحقائق وهم يرون أن الوجوه التي بني عليها كلام الله هي الوجوه التي بني عليها كلام العرب بل كما قالوا: "موجودة على

---

(١) ينظر: دلائل الإعجاز صـ٤٢، تحقيق الشيخ محمود شاكر، وقبله صـ٣٨ يقول: "واعلم أنه لا سبيل إلى أن تعرف صحة هذه الجملة حتى يبلغ القول غايته، وينتهي إلى آخر ما أردت جمعه لك، وتصويره في نفسك وتقديره عندك.

حقائقها وعلى الصحة، وكما ينبغي في منثور كلام العرب ومنظومه ورأيناهم قد استعملوها وتصرفوا فيها وكملوا بمعرفتها ..."(١).

وهذا طريق التدبر وعلو التفكير، وعمل لعقل الذي عرفه بعض العلماء بأنه: "نور يضاء به طريق يبتدأ به من حيث ينتهي إليه درك الحواس"(٢).

وهذا النور هو البصيرة التي تتأمل جواهر الكلام فتستخرج منه علماً ينمو بالتدبر، ولا يقف عند جرس اللفظ، ولا إلى ظاهر وضعه اللغوي الذي خَبَره العرب وكملوا فيه بناء وتعلقاً وتصريفاً ، ولكن يصل إلى أسراره باقتداح العقل، كما قال: " .. فإذا رأيت البصير بجواهر الكلام يستحسن شعراً أو يستجيد نثراً ثم يجعل الثناء عليه من حيث اللفظ، فيقول: حلو وشيق، وحسن أنيق، وعذب صائغ، وخلوب رائع، فاعلم أنه ليس ينبئك عن أحوال ترجع إلى أجراس الحروف ، وإلى ظاهر الوضع اللغوي، بل إلى أمر يقع من المرء في فؤاده، وفضل يقتدحه العقل من زناده"(٣).

فقضية العقل الأولى تكمن في تحريك الخواطر والأفكار لتعرف موطنه الدفين من المعاني الدالة على فضل كلام على كلام، وتلك مهمة علم البيان التي نص عليها، وهو يحدثنا عن فضل العلم، فبعد أن بين أن العلم هو السبيل إلى كل شرف، والدليل على كل خير ... قال عن علم البيان خاصة: "ثم إنك لا ترى علماً هو أرسخ أصلاً، وأبسق فرعاً، وأحلى جنى ، وأعذب وِرداً، وأكرم نتاجاً، وأنور سراجاً من علم البيان الذي لولاه لم تر لساناً يحوك الوَشْيَ ويصوغْ الحَلْيَ، ويلفظ الدُّرَ ويَنْفُثُ السحرَ، ويقْري الشهد، ويريك بدائع من الزهر، ويجنيك الحلو اليانع من الثمر ....."(٤).

---

(١)السابق . صـ٨.

(٢) ينظر: كشف الأسرار شرح المنار للنسفي ت٧١٠هـ ٣١/٢.

(٣) أسرار البلاغة. صـ٥. تحقيق الشيخ محمود شاكر.

(٤) دلائل الإعجاز. صـ٥، ٦ ...

ومعرفة ذلك عن علم البيان (يقصد به البلاغة بصفة عامة) لا تتجلى بسهولة، بل لابد من اقتداح العقل، بعد غذائه بشتى أنواع العلوم والمعارف حتى يتجلى رسوخ أصله، وبسوق فروعه، وحلاوة ثماره ، كما قال ، تجد إقراره بذلك في المدخل الذي أملاه، ويبين فيه أن علم النحو أصل لهذا العلم، وجِذرٌ له، ومرآة تجمع أموره ، وأن طول ممارسته إياه وكثرة معايشته له، وتدبره مسائله فتقت أزاهير عقله فتوصل إلى علم الإعجاز، فكتب الفصول التي بمعرفتها والإحاطة بها تتجلي أسراره، وإن توصل إلى ذلك بعد مكابدات، ومن ثم قال في هذا المدخل "وقد وصلت بأخرة إلى كلام من أصغى إليه وتدبره تدبر ذي دين وفتوةٍ دعاه إلى النظر في الكتاب الذي وضعناه وبعثه على طلب ما دوناه"(١).

هذا الكلام هو فصول الكتاب، لا يصل القارئ إلى بغيته منها إلا بهذا الإصغاء، وذاك التدبر المصحوب بالدين والفتوة، ويلاحظ هنا أنه عبر بالإصغاء دون السمع مثلاً، لما في الإصغاء من ميل يدل على شدة الانتباه ، كما يميل الإنسان بأذنه نحو من يحدثه اهتماماً بقوله، ففي الإصغاء قوة تتناسب مع التأمل الفكري والتدبر العقلي الذي وصل إليه بأَخَرَةٍ.

ومن ثم فرق أبو هلال بين السمع والإصغاء فقال: "السمع هو إدراك المسموع، والسمع أيضاً اسم الآلة التي يسمع بها، والإصغاء هو إدراك المسموع بإمالة السمع إليه"(٢). ومن ثم قال ربنا سبحانه وتعالى: ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ....﴾ (الأنعام: الآية/١١٣) بإسناده إلى الأفئدة الدالة على توقد الأذهان، وهذا هو الذي أراده الإمام من الإصغاء ، والتدبر ، والفتوة العقلية ،كالتي تحلى بها هو

---

(١) من دلائل الإعجاز. صـ٣، ٤.

(٢) الفروق اللغوية. صـ٢٨٤-الفرق رقم ١١٣٠.

في استخراج هذا العلم من استقراء كلام العرب ، واستثمار تراثهم، الذي بني منه علم النحو أولاً ، وفهمَ علم الشعر الذي جعله سلماً للوصول إلى الحديث عن إعجاز القرآن وكل علوم اللغة جاءت بلا ريب من استقراء اللغة، ومن ثم يقول ابن جني عن علم النحو الذي جعله عبد القاهر مرآة لعلم الإعجاز – كما نصَّ في هذا المدخل .. "إنما هو علم منتزع من استقراء هذه اللغة، فكل من فَرِقَ له عن علة صحيحة، وطريق نَهْجَةٍ [ببينة واضحة] كان خليل نفسه، وأبا عمرو فكره"(١).

وعلى ذلك كان علم الإعجاز، وعلوم البلاغة كلها من بطون هذه اللغة التي مدها القرآن بفيض لا مثيل له في الرقي، ولذلك يقول شيخنا الدكتور محمد أبو موسى – مد الله في عمره وزاه من علمه –: قرأ أبو الفتح ابن جني كتب الخليل وسيبويه وأبي علي الفارسي واستخرج من بطنها كتاب الخصائص، ونفس الكتب قرأها عبد القاهر الجرجاني واستخرج من بطنها دلائل الإعجاز، ويا بُعد ما بين خصائص أبي الفتح ابن جني، ودلائل الإعجاز.

وبذلك يكون عبد القاهر استثمر التراث استثماراً دقيقاً كان يناجي فيه عقلُه نفسَه وقلبه، ويراجع لبه فيما يصرفه فكره، ومن ثم قال: "وإذ قد ثبت أن الخبر وسائر معاني الكلام معان ينشئها الإنسان في نفسه، ويصرفها في فكره ويناجي بها قلبه ويراجع فيها لبه فاعلم أن الفائدة في العلم بها واقعة من المنشئ لها، وصادرة عن القاصد إليها"(٢).

وهذا ما فعله في استثماره للتراث، وإعمال عقله فيه وجعل علم النحو مرآة تريك الأشياء المتباعدة قد التقت لك، وتَوَصُّله إلى ذلك العلم الذي بني

---

(١) الخصائص ١/١٩٠ تحقيق محمد علي النجار – ط٣ – الهيئة المصرية ١٩٨٦م وفي الهامش "أي إمام نفسه كالخليل إمام الناس، وكأبي عمرو بن العلاء في ذلك.

(٢) دلائل الإعجاز. صـ٥٤٥.

عليه دلائل الإعجاز بِأَخَرة دليل على هذه المناجاة، وتلك المراجعة، وسلطان العقل عليها وتصريفه لأمورها حتى يتوصل إلى بيان أمر الإعجاز.

وفي مقدماته ما يدل على أن هذه القضية (قضية الإعجاز) شغلته منذ خدم العلم، وتأليفه للنحو قبلها كان دليلاً إليها، وهذا قوله "ولم أزل منذ خدمت العلم أنظر فيما قاله العلماء في معنى الفصاحة والبلاغة والبيان والبراعة، وفي بيان المغزى من هذه العبارات، فأجد بعض ذلك كالرمز والإيماء" والإشارة في خفاء ، وبعضه كالتنبيه على مكان الخبيء ليطلب، وموضع الدفين ليُبْحَث عنه فيُخْرج .."[1].

وهو الذي أشار إليه بعد دفاعه عن الشعر والنحو بأنه شيء في سُوس العقل وفي طباع النفس إذا كانت نفساً، بمعنى أنه يدور في خلده منذ أن شغلته القضية، التي وجد المعول فيها – كما قال – على النظم والترتيب، والتأليف والتركيب، والصياغة والتصوير، والنسخ والتحبير ... ثم تدرج في بيان الموضوع إلى أن قال .. حتى ينتهي إلى حيث تتقطع الأطماع وتَحسَرُ الظنون، وتستوي الأقدام في العجز[2].

وهذا هو الذي تفرق شرحه وبيانه في ثنايا الكتاب وتلك أهمية معرفة المقدمات لأنها مرآة للبناء .

ظل يستثمر هذا الفكر ويراجعه في نفسه وعقله حتى أفاض بقدر منه بعد أكثر من مائتي صفحة، أي بعد أن درس بعض الفصول المنبهة إليه، فقال "وذلك أنه لا يثبت إعجاز حتى تثبت مزايا تفوق علم البشر، وتقصر قوى نظرهم عنها، ومعلومات في متن أفكارهم، وخواطرهم أن تقضي بهم إليها وأن تطلعهم عليها"[3].

(١) دلائل الإعجاز. صـ٣٤.
(٢) ينظر: السابق. صـ٣٤، ٣٥.
(٣) السابق. صـ٢٤٩.

هذه بعض دلائل أثر العقل في بناء فكرة الكتاب، ومن ثم كانت بدايات حديثة في هذا الكتاب عن أمور مهمة جلّت فضل العلم، وأهمية علم البيان، ثم علم النحو، وعلم الشعر، وكلها دليل حُسن البيان الذي علمه ربنا سبحانه للإنسان ليعرف – كما قال الإمام عبد القاهر – منازل العلوم، ويتبين مراتبها، ويكشف عن صورها ويجني صنوف ثمرها، ويُدلُّ على سرائرها، ويبرز مكنون ضمائرها، فقال سبحانه مدللاً على عظيم منته ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ * عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ * خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ * عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ﴾ الرحمن:(١– ٤)[1].

وعبد القاهر يبحث في مكنون الضمائر عن دفائنها من نعم الله سبحانه وما وجده في كلام العلماء ما هو إلا تنبيهات عليه، تحتاج إلى تحريك قوى العقول لاستخراج مضمراتها، وإبراز خفاياها إلي بيان كيف وصل الأمر إلى حد الإعجاز في كلام الله عز وجل.

أشار إلى هذه القضية في مقدمة أسرار البلاغة، وزادها إيضاحاً في مقدمة دلائل الإعجاز في بيان فضل العلم بصفة عامة وعلم البيان بصفة خاصة؛ لأنه هو العلم الذي به يتمكن اللسان من أن يصوغ الحلْى ، وينفث السحر ، ويقري الشهد ، ويظهر بدائع ثمر العقول لتصل إلى معرفة حد الإعجاز بالتدبر، والتأمل الذي يصيب تارة، ويخفق أخرى حتى يصل إلى ثلج اليقين، ولا يكون ذلك كذلك إلا إذا توهج العقل وانقدح زناده فيما يصل به إلى بغيته ويشفي له غلته.

فإذا كان ابن جني أقر بأن علم النحو منتزع من استقراء العربية – كما سبق – فإن عبد القاهر أكد ذلك وهو يتحدث عن أسباب الضيم الذي لحق علم البيان، وسوء الاعتقاد الذي ظنوه في علم الشعر ، وعلم النحو، فقال "وجملة الأمر أنه لا يَرى النقص يدخل على صاحبه في ذلك إلا من جهة

(١) ينظر: أسرار البلاغة. صـ٢.

نقصه في علم اللغة" ثم بين أهمية العقل في ذلك فقال "لا يُعلَم أن هاهنا دقائق وأسراراً طريق العلم بها الروية والفكر، ولطائف مستقاها العقل .."[(١)]. وهذا هو الخبيئ الذي يبحث عنه؛ لأن اللطائف بمعنى الدقائق الخفية، وهذ لا يتم التوصل إليه، والتفطن عليه إلا بإعمال العقل، ومن ثم كان حديثه عن النظم متفرقا في ثنايا الكتاب ، كلما عنّت الحاجة إليه ذكّر بشيء منه يُكمل سابقه، ويمهد للاحقه، لأنه – النظم – عملية عقلية تركيبية لا تقف عند المظهر الخارجي للألفاظ من حيث هي أصوات، بل من حيث المعاني، والمدلولات، والروابط، والعلاقات، ومن ثم كان معنى النظم عنده هو: توخى معاني النحو فما بين الكلم على حسب الأغراض التي يقصد بها الكلام.

وعلى ذلك فالعقل جعل للغة متسعاً لا إلى غاية ، فأخرج منه علوماً ومعارف فيها دقائق لا طريق لها إلا الروية ، والفكر ، ولطائف لا مستقى لها إلا العقل ، كما قال الشيخ عبد القاهر.

وإذا كانت هذه العلائق – أساس النظم – لا يجليها بداية إلا علم النحو، فكيف يكون بابا من التكليف وضرباً من التعسف كما يزعمون؟ بل هو ميزان الكلام كما قال أبو العباس ثعلب" لا يصح الشعر، ولا الغريب، ولا القرآن إلا بالنحو، والنحو ميزان هذا كله" وقال "تعلموا النحو فإنه أعلى المراتب"[(٢)] لأنه يدور في نسيج كل فن، وبه تضبط مسائل كل علم، ومن ثم جعله عبد القاهر مقدمة عمله هذا بعد دراسة علم الشعر وفهم خباياه في كتاب أسرار البلاغة، وعلى ذلك فالعلاقة بين علم النحو وعلم البلاغة بما فيها من دراسة أسرار الإعجاز رأسها العقل ومفتاحها التدبر، وخير من أبرزها قبل عبد القاهر هو ابن جني، حين ذكر باباً في (تجاذب المعاني

---

(١) ينظر: دلائل الإعجاز. صـ٧.

(٢) مجالس تعلب. صـ٣١٠.

والإعراب) قال فيه: "هذا موضع كان أبو علي – رحمه الله – يعتاده، ويلم كثيراً به، ويبعث على المراجعة له ، وإلطاف النظر فيه ، وذلك أنك تجد في كثير من المنثور والمنظوم الإعراب والمعنى متجاذبين، هذا يدعوك إلى أمر، وهذا يمنعك منه، فمتى اعتورا كلامًا مّا أمسكت بعروة المعنى، وارتحت لتصحيح الإعراب .."[(١)] وهذا قولهم: الإعراب فرع المعنى، وبتأمل هذه النظرية نستطيع أن ندرك أن المنهج العقلي المحكم الذي سار عليه عبد القاهر "هو الذي قاده إلى اعتماد النحو التعقيدي (نحو الصنعة) أساساً لإدراك القيمة الحقيقية للصياغة وما يمكن أن يتيحه هذا النحو من إمكانيات تركيبية تقترب من الإنسان ومقاصده الواعية[(٢)].

وعلى ذلك: فطاقات اللغة، ووسائلها التعبيرية، وروابطها هي التي دلت على علم الإعجاز، وهي لب البلاغة وأساس هذه اللطائف، ومن ثم كان دفاعه عن النحو والشعر مدخلا لدراسة بلاغة الكلام التي بها يتم التوصل إلى أمر الإعجاز.

ولما أراد عبد القاهر أن يضبط زمام العقل في فهم هذا العلم بيّن أنه مبني على أمور لايُدرك إلا بالإحاطة بها، والانتهاء من معرفتها فقال: "واعلم أنه لا سبيل إلى أن تعرف صحة هذه الجملة حتى يبلغ القول غايته، وينتهي إلى آخر ما أردت جمعه لك، وتصويره في نفسك، وتقريره عندك"[(٣)].

ثم قدم لهذا الذي جمعه بيان أنه لابد أن يكون للاستحسان جهة معلمة، وعلة معقولة، وأكد الحقيقة التي ذكرها ابن جني في علاقة هذا العلم بعلم الإعراب فقال: وإنه على الجملة بحيث ينتفي لك من علم الإعراب خالصه

---

(١) الخصائص ٢٥٨/٣.

(٢) ينظر: كتاب: قضايا الحداثة عند عبد القاهر الجرجاني. صـ٢٨٦. د. محمد عبد المطلب.

(٣) دلائل الإعجاز. صـ٣٨.

ولبه، ويأخذ منه أناسي العيون وحبات القلوب، ومما لا يدفع الفصل فيه دافع، ولا ينكر رجحانه في موازين العقل منكر(١).

يفهم من هذا أن العقل الذي استنبط النحو من بطون اللغة هو الذي استنبط فوائد البيان، وأسباب الحسن وعلله من علائق الكلام، وارتباط ثان منها بأول، ومدى المطابقة لمقتضى الحال.

ثم بيّن أهمية ترتيب فصول هذا الكتاب (دلائل الإعجاز) فقال:- فاعلم أن ههنا فصولاً يجئ بعضها في إثر بعض، وهذا أولها، ثم كتب فصلاً في تحقيق القول في الفصاحة والبلاغة ، ثم فصلا في الفرق بين حروف منظومة وكلم منظومة، ثم فصلا في تعريف النظم .. وهكذا توالت فصول الكتاب، وكل منها يُسْلم للذي يليه حتى انتهت بتماسكها الذي يجعل القضية المعالجة قضية واحدة تدل عليها مقدماته التي تجلى منها أن علوم اللسان العربي تتكامل، وأن النحو ملاك اللغة، وأن البلاغة سلطان البيان.

وذكر ابن خلدون فصلا في علوم اللسان العربي وقال: أركانه أربعة: وهي: اللغة والنحو ،والبيان ، والأدب ، ومعرفتها ضرورية على أهل الشريعة كلها من الكتاب والسنة ، والذي يتحصل أن المقدم منها علم النحو؛ إذْ به يتبيّن أصول المقاصد بالدلالة فيعرف الفاعل من المفعول، والمبتدأ من الخبر، ولولاه لجُهل أصل الإفادة وكان من حق علم اللغة التقدم، لولا أن اكثر الأوضاع باقية في موضوعاتها لم تتغير بخلاف الإعراب الدال على الإسناد والمسند إليه فإنه تغيَّر بالجملة ولم يبق له أثر، فلذلك كان علم النحو أهم من اللغة؛ إذْ في جهله الإخلال بالتفاهم جملة، وليست كذلك اللغة ... (٢).

---

(١) ينظر: السابق. صـ٤١، ٤٢.

(٢) المقدمة. تحقيق الدكتور / على عبد الواحد وافي ١٢٦٤/٣ الطبعة الثالثة دار نهضة مصر الفجالة القاهرة .

ثم تحدث عن علم اللغة، وما أُلف فيه، ثم ذكر علم البيان[1]، وقال فيه: "هذا العلم حادث في الملة بعد علم العربية واللغة، وهو من العلوم اللسانية ؛ لأنه متعلق بالألفاظ وما تفيده، ويقصد بها الدلالة عليه من المعاني .

وبعد أن أفاض في الحديث عنه قال: واعلم أن ثمرة هذا الفن إنما هي فهم الإعجاز من القرآن؛ لأن إعجازه في وفاء الدلالة منه بجميع مقتضيات الأحوال، منطوقةٍ ومفهومةٍ، وهي أعلى مراتب الكلام، مع الكمال فيما يختص بالألفاظ في انتقائها وجودة وصفها وتركيبها، وهذا هو الإعجاز الذي تقتصر الأفهام عن إدراكه، وإنما يُدرك بعض الشيء منه من كان له ذوق بمخالطة اللسان العربي، وحصول ملكته، فيدرك من إعجازه على قدر ذوقه، فلهذا كانت مدارك العرب الذي سمعوه من مبلغه أعلى مقاماً في ذلك؛ لأنهم فرسان الكلام وجهابذته، والذوق عندهم موجود بأوفر ما يكون وأوضحه[2].

يُفهم من هذا الكلام أن الإمام عبد القاهرة استثمر التراث، وخاصة علم النحو في حديثه عن الإعجاز، وبرع ذوقه لماَّ توصل لذلك بأخَرة، وجاءت عبارته الأولى تبين أن أصول النحو هي مرآة هذا الذوق، ثم ختم العبارة بأن الكلام الذ توصل إليه بأخرة يحتاج إلى إصغاء، وتدبر يدفع إلى قراءة فصول الكتاب بمعرفة أسرار الإعجاز وهذا قوله "وقد وصلت بأخرة إلى كلام من أصغى إليه وتدبره تدبر ذي دين وفتوة دعاه إلى النظر في الكلام الذي وضعناه، وبعثه على طلب ما دوناه ..."[3].

وما الإصغاء والتدبر إلَّا نتاج عقل يتبصر علائق الكلام ومعانيه وما وراء هذه المعاني، ومن ثم كان فهم هذه المقدمات، وما تلاها من مقدمات أخرى في أهمية العلم والدفاع عن علم النحو ، وعلم الشعر، والحديث عن

---

(١) ينظر السابق : جـ٣/١٢٧٣.

(٢)السابق٣/١٢٧٦ .

(٣) دلائل الإعجاز. صـ٣، ٤.

الفصاحة والبلاغة كل ذلك ممسك بذمام الكتاب ومبين أهمية فهم موضوعاته، وأنه – كما توصل إلى فهم الإعجاز من استثماره علم النحو وعلم الشعر، كذلك من يتدبر هذه الفصول التي بُني عليها الكتاب يتوصل بأخرة إلى شيء من أسرار الإعجاز، أو يقف على الطريق الذي يدله على ذلك وهذا التدبر هو مفتاح الذوق الذي ذكره ابن خلدون.

ووفاء دلالة الكلام بجميع مقتضيات أحواله المنظومة والمفهومة ليس أمراً سهلاً، وإنما مبناها الذوق، ودرجات الذوق تكون على قدر درجات التدبر، ومراحل التأمل.

وقد بدأ عبد القاهر الموضوع بيسر وسهولة حيث قال: "معلوم أن ليس النظم سوى تعليق الكلم بعضها ببعض، وجعل بعضها بسبب من بعض"(١).

ولكن وراء هذه العبارة – عند التأمل – بيان الحسن وعلله وأسبابه، ومن ثم ختم هذه المقدمات بأن الوصول إلى ذلك لا يكون إلا بعد الإحاطة بهذا الذي جمعه ، ومن ثم استخدم كلمة العقل ، والتدبر ، والتأمل كثيرا في هذه المقدمات ؛ ليبين أن الوصول إلى معرفة الإعجاز ليس مجرد كلام يُقرأ أوْ بيان يُدرس دراسة تعلم لأصول قواعده، ولكن هذه القواعد وراءها أسرار تتجلي في الضم على نمط مخصوص، تتفاوت عظمته بقدر التأمل فيه ، ومعرفة أسرار علائقه ومعانيه؛ لأن كل حال يحتاج إلى دلالة عليه لتتم الإفادة، ومن ثم قال ابن خلدون "ولكل مقام عندهم مقال يختص به بعد كمال الإعراب والإبانة" وهذا لا يكون إلا بالتأمل والتعقل والتفكير والتروي الذي دعا إليه عبد القاهر كثيراً في هذه المقدمات، مثلاً مادة (عقل) في هذه المقدمات وقعت في سياق كلامه دالة على أمور منها:

١- التوجيه الذي به تتجلى قيمة العقل؛ لأن الإنسان لا يصل إلى الحقائق إلا به، ولا يكون له رأي أو إضافة أو طريق آخر إلا بإعماله لذلك

(١) ينظر: دلائل الإعجاز. صـ٤.

جمع بين العقل والدين في سياق وحد، وهذا يعني أن أحدهما لا يغني عن الآخر في فهم الحقائق، واستخراج الدقائق، فقد يكون صاحب دين ولكن مبتلى بقصور في العقل فيتأثر بذلك فكره فقال وهو يتحدث عن الذي تجدد بالقرآن من عظيم المزية وباهر الفضل والعجيب من الرصف حتى أعجز الخلق قاطبة ... وحتى بهر قهر :

إن كان يلزمنا أن نجيب من يرى أن العرب يعرفون هذه الوجوه التي هي محصول النظم "فينبغي لكل ذي دين وعقل أن ينظر في الكتاب وضعناه ، ويستقصي التأمل لما أودعناه ..."

فالدين يضبط العقل، والعقل يدعو إلى النظر، ومن ثم يكون استقصاء التأمل، هذا بيانه، وإن عبر بالواو الدالة على مطلق الجمع لئلا يقيد النعم بترتيب معين، ولكن سياق الكلام يحتاج إليها بترتيبها هذا فالتأمل مرحلة عقلية متطورة، والأمر هنا لا يحتاج تأملاً فحسب بل استقصاء التأمل.

وهذا الكلام في مدخل الكتاب له دلالة يستفاد منها: أن استقصاء التأمل في فصول الكتاب يصل بمن يفعل ذلك إلى هذا الذي تجدد بالقرآن من عظيم المزية وباهر الفضل والعجيب من الرصف.

٢- بيان أهمية العقل في استخراج فضائل العلم ، وبيان منزلته من الفضائل وندرة من يصدر في كل أمره عن العقل، فبعد أن بين أنه لا شرف إلا وهو السبيل إليه، ولا خير إلا وهو الدليل عليه، ولا منقبة إلا وهو ذروتها وسنامها .. إلخ قال: فهذا في فضل العلم لا تجد عاقلا يخالفك فيه، ولا ترى أحداً يدفعه أو ينفيه .. ثم ذكر أن آراء الناس تختلف وتتفاوت في حب كل منهم لما يحسن، ومحاولة الزراية على ما لا يحسن ، قال "فأما من يخلص في هذا المعنى من الحيف حتى لا يقضي إلا بالعدل، وحتى يصدر في كل أمره عن العقل فكالشيء الممتنع وجوده .." هذا هو العقل الذي يبحث عن الحقائق ويستخرج خفايا الأمور ليقف على الحقائق ، قال فيه "فكالشيء الممتنع وجوده" وذلك لقلة درجات الإخلاص للعلم

الذي به يتجلى أمر الإعجاز، وتلك دعوة منه إلى التحلي بهذا النادر ليكون فضيلة تميز صاحبها بقدر منزلة العلم في نفسه.

٣- الإحاطة بعلوم اللغة غذاء للعقل الذي يستقي الحقائق من معادنها ويصل بها إلى أنفس مراتبها ، وتلك سمة علم البيان ، وأساس معرفته هو العقل الذي يميز بيانا من بيان .

ذكر هذا وهو يتحدث عن قيمة علم البيان، وما دخل على الناس من سوء الاعتقاد وفساد الظن به فقال "وجملة الأمر أنه لا يرى النقص يدخل على صاحبه في ذلك إلا من جهة نقصه في علم اللغة، لا يعلم أن هاهنا دقائق وأسرار طريق العلم بها الروية والفكر، ولطائف مستقاها العقل ......" [١].

فهذه اللطائف هي التي تثبت المزايا التي تفوق منن أفكار البشر وعلومهم، وقد جلى ذلك وفصله في حديثه عن الفصل والوصل وأن بلاغته لا يصل إلى كنهها إلا قوم طبعوا على البلاغة وأوتوا فناً من المعرفة في ذوق الكلام هم بها أفراد[٢].

ثم زاده بياناً في فصول فيها فضل شحذ للبصير وزيادة كشف عما فيها من السريرة، وأن مجرد معرفة للغة لا يفضي بشيء من ذلك، ولكن مكمن المزية في الروية والفكر وتعقل الخبايا بالوصول إلى شيء من الأسرار التي تفوق منن البشر وأن معرفة اللغة والشعر والنحو .. تساعد العقل على الوقوف على تلك اللطائف التي يثبت بها فضل كلام على كلام وتَميُّزُ بيانٍ عن بيان.

ولذلك نراه يحث على إعمال العقل والفكر كقوله مثلاً "ونح الهوى عنك وراجع عقلك واصدق نفسك ... كل ذلك للوصول إلى معرفة حجة الله من

(١) دلائل الإعجاز. صـ٧.

(٢) السابق. صـ٢٢٢.

الجهة التي تكون أنور وأبهر وأقوى وأقهر .. فمناط ذلك كله هو العقل وهذا في مدخل الكتاب إشارات مجملة لما تم تفصيله بعد.

المبحث الثاني

مقدمات فصول الكتاب معاقل لها

مقدمة كل فصل من فصول كتاب دلائل الإعجاز حصن له يحوي أسراره ويجمع خصائصة، ويضم مزاياه جملة، ومهما يقرأ القارئ في هذا التفصيل لا يكاد يصل إلى كنه الفوائد التي جمعتها مقدمته ، فقد صبَّ فيها زبدة الفكر، واللطائف التي استقاها العقل من ثراء اللغة ، التي استمد منها غذاءه ليصل إلى السر الذي دخل كلام الله حتى صار معجزاً، وعند دراسة هذه الفصول وتأمل دقائقها والبحث في زواياها نجد هذه الدقائق مجملة في هذا الحصن (المقدمة)، وقد يكون ذلك واضحاً جلياً في بعض المقدمات ومغموراً في مقدمات أخرى.

فمن المقدمات الجلية في جمع مزايا الفصل جملة قبل تفصيلها مقدمة: (القول في التقديم والتأخير)، وكذلك القول في (الحذف) و(الفصل والوصل) ، على سبيل المثال.

وفصول هي نتاج غيرها، كالتي قال فيها: فصول شتى في أمر اللفظ والنظم فيها شحذاً للبصيرة، وزيادة كشف عما فيها من السريرة، فمن يقرأ هذه الفصول، وما شابهها يلحظ فيها نتائج الفكر، وثمار العقل فيما مضى بيانه، فهي برهان عليه، ودليل إليه.

وفصول تنبلج من سابقتها كقوله: فصل في مسائل (إنما) جاء هذا بعد أن بيَّن خصائص (إنَّ) ومواقعها، قال: ونحن نقتصر الآن على ما ذكرنا ونأخذ في القول عليها إذا اتصلت بها (ما) .

وهكذا نجد بعض الفصول كالأساس وبعضها كالنتائج، وبعضها ملحقات بغيرها والغرض منها جميعها هو الوصول إلى المراد من تأليف الكتاب .

ونأخذ بعضاً منها نموذجاً على أنها حصن يأوي مزيا الفصل جملة، فننظر مثلاً في مقدمة الكلام عن التقديم والتأخير فنجد عمل العقل فيها جعلها أساساً ، أو جذراً قوياً يحملها، ومعرفة العلاقة بينهما (أي المقدمة

والفصل) تحتاج أيضاً إلى إعمال عقل وقوة تدبر، وبراعة تأمل، لأنه شرب ماءها، وتغذى بأصولها، ولنتأمل مقدمة التقديم والتأخير التي قال فيها: هو باب كثير الفوائد، جَمُّ المحاسِن، واسع التصرف، بعيد الغاية لا يزال يفتر لك عن بديعة، ويفضي بك إلى لطيفة، ولا تزال ترى شعراً يروقك سمعه، ويلطف لديك موقعه، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك أن قُدم فيه شيء وحُوِّل اللفظ عن مكان إلى مكان[1].

فمن يتقن درس التقديم فهْماً، ويتدبر خباياه، تدبراً ويقف على أسراره وأهميته بيقين يجد ذلك كله مجموعاً في هذه الكلمات التي قدم بها، فهي كمقدمة البحث التي تُكتب بعد الفراغ منه، ومراجعته مرة، ومرة، ولو عاد الباحث إلى بحثه بعد زمن لغيَّر فيه، وبدَّل ، وزادَ وحسَّن، وهذا هو قوله هنا لا يزال يفتر لك عن بديعه ويفض بك إلى لطيفة .... أما قوله: هو كثير الفوائد، ففيها دلالة على أن ما ذكره هنا ليس كل فوائده، وإنما هي شواهد لها، وقوله "جَمُّ المحَاسِن"، يعني مجتمع المحاسن، ففيه دلالة على ما يطويه من معانٍ، أما اتساع التصرف، وبُعد الغاية، فأكبر دليل على نمو العلم بنمو العقل، فكلما نما العقل بالفكر والتدبر والتأمل في غذائه الذي هو من ذات العلم، كلما اتسع تصرفه ، وعلت غايته ، وكما سبق في وصية عبد الملك بن صالح العباسي لابنه: (وطول التجارب زيادة في العقل) .

وهذا التصرف، وهذا الاتساع، وذاك البعد، لا يكون في الألفاظ ، وإنما تحمله المعاني التي توحي بالألفاظ، نصَّ على ذلك وهو يحدثنا عن جنس المزية "وأنها من حيز المعاني دون الألفاظ، وأنها ليست لك حيث تسمع

---

(١) دلائل الإعجاز. صـ١٠٦.

بإذنك، بل حيث تنظر بقلبك وتستعين بفكرك، وتُعمل رويتك، وتراجع عقلك، وتستنجد في الجملة فهمك(١).

و ترتيب العبارات هنا مبني على دلالة، فكل عبار فيها معنى يُسْلم مهمته للتي تليها، حتى وصل إلى استنجاد الفهم.

فعندما يذكر هذا البيان العالي ثم يأتي بعده بفاتحة باب القول في التقديم بهذه الشاكلة، فمعناه أنه سيبدأ في بيان نتاج العقل ، وحسن التدبر، وإعمال الروية، ومراجعة العقل، والا ستغاثة بقوة الفهم للوصول إلى المراد.

وفي باب التقديم نفسه يبين صعوبة هذه المسألة، مسألة استنطاق العقل، واستنجاد الفهم الذي تنجلي منه العلة، وسبب العلة ، فيقول "وليت شعري إن كانت هذه أموراً هينة، وكان المدى فيها قريباً، والجَدَى يسيراً، من أين كان نظمٌ أشرفَ من نظم، وبمَ عظمَ التفاوت واشتد التباين، وترقى الأمر إلى الإعجاز، وإلى أن يقهر أعناق الجبابرة ..."(٢).

وهنا يتجلى أيضاً بُعد الغاية، وسعة التصرف، وأنه ليس أمراً هينا، والتأمل في درس التقديم كله عنده يعطي دلائل على هذه المقدمة، ويشهد بأنها نتاج فكر يحويه الفصل، وخلاصة عقل توضحه المسائل التي درسها، والفروق التي وقف عندها، كالفرق بين البداية بالفعل (أفعلت) والبداية بالاسم (أأنت فعلت) وما يترتب على ذلك من اتساع مدارك العقل التي منها: أن الاسم إذا تقدم كان الفعل موجوداً وواقعاً، وأن الفعل إذا تقدم وقع الشك فيه، ولا يصلح هنا تقديم الاسم، وأن الكلام قد يأتي على صورة إنكار الفاعل والمراد إنكار الفعل ، وهذا أوكد في النفي؛ لأنه كدعوة الشيء ببينة، ونفي بدليل، والكناية عن نفي الفعل أبلغ من التصريح

---

(١) السابق صـ٦٤.

(٢) السابق. صـ١٠٩.

بنفيه، ومن ثم يتجلى إعمال العقل وقوة التدبر، وأن هذه الفروق تأتي والفعل ماض كما تأتي وهو مضارع، وتأتي في النفي كما تأتي في الإثبات، وتأتي في التعريف والتنكير كذلك ... وتلك هي طرائق اللغة التي يستنبطها العقل من مضمرات النفوس.

* * *

وعلى تلك الشاكلة – لو تأملنا – القول في الحذف ، يقول في مقدمته: "هو باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بياناً إذا لم تُبنْ"(١).

نجد أنه عبر بقوله: "دقيق المسلك" ؛ لأن الغائب غامض، ومعنى الحذف أن هناك شيئاً غائباً عن الظاهر، فصار الكلام قليلاً والمعنى كثيراً، وهذا خفيٍ غامض لا يدركه إلا ذو بصيرة، والمسلك هنا يُقصد بها المسالك لأن مسالك الحذف لا تُحدُّ ولا تُعد، فالعبارة التي تطوي بينها عبارات أو الكلمة التي تطوي كلمات، لا ريب أنه لا يكون ذلك كذلك إلا من منطلق القوة، ومع هذه القوة وذاك الخفاء تجد اللطف بما فيه من خفاء ورقة، فلم يجد عبد القاهر ببراعة فكره – بعد التعبير – بدقة المسلك إلا لطف المأخذ فقال: "لطيف المأخذ".

وهذا التعبير يكون في دقائق الأمور وخفيها، قال الراغب الأصفهاني: "ويعبر باللطف واللطافة عن الحركة الخفيفة، وعن تعاطي الأمور الدقيقة"(٢).

والدقة لا تكون إلا بتمعن وتأمل وبُعد نظر، واللطف كذلك فيه معنى الخفاء، ومن ثم قال بعد ذلك "عجيب الأمر" ؛ لأن المعاني الكثيرة تجمعها ألفاظ قليلة، وتلك براعة في الألفاظ أيضاً؛ لأنها اكتفت بنفسها، واستغنت

---

(١) دلائل الإعجاز. صـ١٤٦.

(٢) المفردات. مادة: لطف.

عن كثير غيرها ، ولذا قال "شبيه بالسحر" لما فيه من خفاء، وصرف عن الظاهر وقد قالت العرب عن القرآن: (إنه شعر؛ لأنها وجدت في توقيعه هزة لا تجد شيئاً منها إلا في الشعر .. ولما قال الوليد إنه ليس على أعاريض الشعر، رأوا أنه ضرب من السحر؛ لأنه جمع بين طرفي الإطلاق والتقييد في حدٍ وسط، فكان له من النثر جلاله وروعته، ومن الشعر جماله ومتعته .."[(١)].

وعبد القاهر يدرس هذه الفصول ويدركها في عقولنا لنصل إلى بيان حدِّ الإعجاز، ومعرفة كيف صار القرآن معجزاً، فيرى أن باب الحذف من أهم طرائق الإبانة عن سمت القرآن الكريم وما فيه من إيجاز لا يطاول، ولذا قال الشيخ عبد الله دراز في هذا الباب أيضاً "إن القرآن يستثمر دائماً برفقٍ أقلَّ ما يمكن من اللفظ في توليد أكثر ما يمكن من المعاني . أجل؛ تلك ظاهرة بارزة فيه كله، يستوي فيها مواضع إجماله التي يسميها الناس مقام الإيجاز، ومواضع تفصيله التي يسمونها مقام الإطناب، ولذلك نسميه إيجازاً كله؛ لأننا نراه في كلا المقامين لا يجاوز سبيل القصد ولا يميل إلى الإسراف ميلاً ما، ونرى أن مراميه في كلا المقامين لا يمكن تأديتها كاملة العناصر والحلى بأقل من ألفاظه، ولا بما يساويها، فليس فيه كلمة إلا وهي مفتاح لفائدة جليلة، وليس فيه حرف إلا جاء لمعنى"[(٢)].

ومن ثم كان هذا الباب – الجليل – باب الحذف – كما قال عبد القاهر: ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر ... إلى آخر ما قال؛ لأن تركه وعدم النطق به أعمل العقل وحرك الوجدان، لتذهب النفس في تقديره، فتدرك من البيان وهي تفكر أكثر مما تراه والكلام على عواهنه لا تحتاج فيه إلى فكر أو تدبر، وهنا يقول الشيخ دراز: "وفي النفس الإنسانية قوتان: قوة تفكير،

---

(١) ينظر: النبأ العظيم د/ محمد عبد الله دراز. صـ١٠٣.

(٢) السابق. صـ صـ١٢٧: ١٣٠.

وقوة وجدان، وحاجة كل واحدة منها غير حاجة أختها، فأما إحداهما فتنقب عن الحق لمعرفته، وعن الخير للعمل به، وأما الأخرى فتسجل إحساسها بما في الأشياء من لذة وألم، والبيان التام هو الذي يوفي لك هاتين الحاجتين، ويطير إلى نفسك بهذين الجناحين، فيؤتيها حظها من الفائدة العقلية والمتعة الوجدانية معاً"[1].

ثم يقول بعدها: فهل رأيت هذا التمام في كلام الناس؟.

وعبد القاهر يدرب الدارس والباحث على ذلك؛ ليدرك قيمة هذا النوع من البيان في كلام البشر، ويبين أنه باب يصعب إدراكه فيقول: وهذه جملة قد تنكرها حتى تَخْبُرَ، وتدفعُها حتى تنظر"[2].

وهذا حث منه على دقة التدبر، وقوة التأمل، لذلك بدأ بأمثلة مما أنشده صاحب الكتاب – كما قال – لينبه على صحة ما قال مع إقامة الحجة عليه، وكأنه بهذا القول يرشدنا إلى مصدر فكره، ومنبع فهمه، ليثير وجداننا كما ثار وجدانه، ويحرك عقولنا كما تحرك عقله، ويعلمنا أمانة الكلمة، وأهمية إعمال العقل وتنشيط الفكر في معرفة دلالتها بين سياقها، وقرائن الأحوال المحيطة بها، ومن ثم بدأ الموضوع بدراسة شواهد من الشعر على اختلاف أنواع المحذوف، ثم قال بعد الانتهاء منها: فتأمل الآن هذه الأبيات كلها، واستقرها واحداً واحداً، وانظر إلى موقعها في نفسك، وإلى ما تجده من اللطف والظَّرْف إذا أنت مررت بموضع الحذف منها، ثم فليت النفس عما تجد وألطفت النظر فيما تُحِسُّ به، ثم تكلف أن تردَّ ما حذف الشاعر، وأن تخرجه إلى لفظك، وتوقعه في سمعك، فإنك تعلم أن الذي قلت كما قلت، وأن رب حذف هو قِلادةُ الجيد، وقاعدة التجويد" فهذه

(١) السابق. صـ صـ١١٣، ١١٤.

(٢) دلائل الإعجاز. صـ١٤٦.

أول نتيجة يوضح بها ما ذكره في مقدمة الفصل(١)، ثم أثبت بعدها في كل شواهده التي ذكرها أن الحذف أحسن من الذكر، وأن الإضمار في النفس أولى وآنس من النطق به، فإذا كان هذا في كلام الناس، فما بال كلام رب الناس؟ لذلك تدرج في دراسة الموضوع بشواهد من الشعر يُطعمها ببعض شواهد الكتاب العزيز إفصاحاً لغرضه، وتجلية لحجته .. إلى أن كتب كلمة جامعة كانت – من وجهة نظري – هي النتيجة الثانية لإثبات حجته فيما قدم ، فقال: "قد بان الآن واتضح لمن نظر نظر المتثبت الحصيف الراغب في اقتداح زناد العقل، والازدياد من الفضل، ومن شأنه التَّوْقَ إلى أن يعرف الأشياء على حقائقها، ويتغلغل إلى دقائقها، ويربأ بنفسه عن مرتبة المقلد الذي يجري مع الظاهر، ولا يعدو الذي يقع في أول الخاطر، أن الذي قلت في شأن "الحذف" وفي تفخيم أمره، والتنويه بذكره، وأن مأخذه مأخذ يشبه السحر، ويَبْهرُ الفكر، كالذي قلت"(٢).

فتثبت النظر واقتداح زناد العقل أصل في أن يقع المعنى موقعه ويصيب غرضه، ولا يخرج عن مراده.

كل هذا وغيره مما ذكره خلال شواهد الباب مجليا حجته ومبرْهناً على ما ذكره في مقدمة الفصل دليل بيّن على أثر العقل في بناء المعرفة بناء تستقيم به الحجة ويصل إليها الفكر من الوجه الأنور لها حتى نعرف الأسس التي بها بهر القرآن الكريم، وقهر، وبذلك نرى أن مقدمة الفصل أجملت مراده، وأن ما جاء بين جنباته تفصيل وتوضيح لها لذلك قلت إنها الحصن الذي تجتمع فيه أفكار الباب أو الفصل.

وهكذا كل باب من أبواب البلاغة ، أو فصل من فصولها – كما يسميه – تتكاثر فيه اللطائف وتبعد فيه الأسرار، وتتغازر فيه الدلائل ، وتتصادق

(١) دلائل الإعجاز. صـ١٥١.

(٢) دلائل الإعجاز. صـ١١.

فيه البراهين على أن بيان الله معجز. ولكن لابد من بث الفكر، وإحكام النظر، والتغلغل في المعاني كما قال عبد القاهر:

ونحن ما إن بثثنا الفكر ننظر في ... أحكامه ونُرَوِّي في معانيه
كانت حقائق تَلْقَى العلم مُشْتَرِكاً ... بها، وكلاً تراه نافذاً فيه[1].

وليست كل مداخل الفصول أو الأبواب على هذا النمط كما سبق، بل هناك أبواب ينبلج بعضها من بعض كما أشرت في استمداد الحديث عن أسلوب القصر من الكلام عن مواقع "إن" وكذلك الشأن في أسلوب الفصل والوصل لبراعة أسلوبه، ولكونه سراً عالياً من أسرار البلاغة، لدرجة أن بعض الناس سئل عن البلاغة فقال معرفة الفصل من الوصل، لكونه كذلك جاء الحديث عنه منسلاً من الحديث عن جملة الحال ومجيئها مع الواو تارة وبدونها أخرى، ولكل منهما دلالة، وفيه يقول الشيخ "وفي تمييز ما يقتضي "الواو" مما لا يقتضيه صعوبة"[2]

ولما كانت أهمية ذكر الواو، وأهمية حذفها تختلف باختلاف المعنى والدلالة المطلوبة، جاء حديثها عن باب الفصل والوصل تتمه لذلك، ليبين حسن الكلام مع ذكر الواو، فيما يقتضية المقام، وحسن الكلام بدون الواو فيما يقتضية المقام أيضاً وكيف يصل العقل ويرقى الفكر إلى سر ذلك مع أنه باب صعب؛ لأن اللغة لها ضوابط تنزهها عن الخلل.

ومن ثم جمع ما أراده في هذا الفصل (فروق الخبر وبعدها فروق الحال) مبيناً أهميته ومجليا دلالته في مقدمة (الفصل والوصل) ولافتاً النظر الثاقب إلى أهمية الكلام مع الواو تارة، وبدونها أخرى وأنه "من أسرار البلاغة ومما لا يتأتى لتمام الصواب فيه إلا الأعراب الخلص، وإلا قوم

---

(١) السابق.

(٢) دلائل الإعجاز. صـ٢٠٢.

طبعوا على البلاغة، وأوتوا فناً من المعرفة، في ذوق الكلام هم بها أفراد"[١]

.

يدلنا هذا البناء للكتاب على ترتيب الفكرة في عقله، وأنه لم يدخل على الباب الصعب الذي لا يتأتى لتمام الصواب فيه إلا الأعراب الخلص ... لم يدخل عليه فجأة، بل مهد له بجملة الخبر، وجملة الحال ، والفروق في كل منهما، ليدل على مكانة الواو حين يقتضيها السياق، وبلاغة الكلام حين يستغني عنها ويأتي متصلاً من ذات نفسه وهذا ما يسميه الفصل، وبعد أن يدرس قدراً من شواهده، يلفت إلى أهميته والحاجة فيه إلى علو الفكر، ونباهة العقل، وأنه من الغفلة الشديدة ترك العلة وعدم البحث عنها، فيقول "واعلم أنه ما من علم من علوم البلاغة أنت تقول فيه: "إنه خفي غامض ودقيق صعب" إلا وعلم هذا الباب أغمض وأخفى وأدق، وأصعب، وقد قنع الناس فيه بأن يقولوا إذا رأوا جملة قد تُرك فيها العطف: "إن الكلام قد استؤنف وقطع عما قبله" لا تطلب أنفسهم منه زيادة على ذلك. ولقد غفلوا غفلة شديدة"[٢].

فهذا كلام متصل بما ذكره في مقدمة الباب من أنه لا يصل إليه إلا قوم طبعوا على البلاغة ...، وحث أيضاً على إلهاب الفكر في استخراج خباياه، والوقوف على الحسن وعلله ؛ لأن اللغة – كما قال العلماء – منزهة عن العبث، لا يؤتي بالحذف فيها إلا لدلالة، ولا يترك إلا لدلالة، فإذا تأملت ذلك أدركت سر الحسن الذي يصل بك إلى سر الإعجاز في بيان الله.

وهكذا نرى كل فصل أو باب عنده تفصيل لمقدمته التي ذكرها، وبين جنباته تذكير بما فيها .

---

(١) السابق. صـ٢٢٢.

(٢) السابق. صـ٢٣١.

ثم يؤكد على قضية مهمة عقب ذلك وهي: أنه من الخطأ العظيم والغلط المنكر أن المزية التي يثبت بها الإعجاز جاءت من جانب العلم باللغة بما فيها من فروق ووجوه، نحو كون الواو للجمع ، والفاء للتعقيب من غير تراخ ، وثم له بشرط التراخي .. وهكذا مما يعبر عنه وضع لغوي، ولكن تثبت المزية بسائر ما هو هيئة يحدثها التأليف، ويقتضيها الغرض الذي تؤم، والمعني الذي تقصد.

ثم بيَّن أنه لا يثبت إعجاز حتى تثبت مزايا تفوق علوم البشر، وتقصر قوى نظرهم عنها ومعلومات ليست في منن أفكارهم وخواطرهم أن تفضي بهم إليها، وأن تطلعهم عليها، وذلك محال فيما كان علماً باللغة؛ لأنه يؤدي إلى أن يَحْدُث في دلائل اللغة ما لم يتواضع عليه أهل اللغة، وذلك ما لا يخفى امتناعه على عاقل"(١).

وذلك يعني أن هذه الأبواب اللغوية والبلاغية هي وسائل العقل لفهم سر الإعجاز، وليست هي الإعجاز ، ولا يصلح أن تكونه، بل هو الاتساق الذي رأوه فأعجزهم، ولفهم هذا الاتساق لابد من فهم قوى اللغة وطرائقها ...، ومن ثم قال الإمام ".. أعجزتهم مزايا ظهرت لهم في نظمه، وخصائص صادفوها في سياق لفظه وبدائع راعتهم من مبادئ آيه ومقاطعها، ومجاري ألفاظها ومواقعها وفي مضرب كل مثل ومساق كل خبر ، وصورة كل عظه، وتنبيه ، وتذكير ، وترغيب ، وترهيب، ومع كل حجة وبرهان وضعه وتبيان ..."(٢).

معنى ذلك أن معرفة علم الإعجاز لا تقتصر على معرفة قضايا اللغة فحسب بل يدخل في ذلك سائر العلوم في مضارب الأمثال، ومساق الأخبار وما فيه من عظات .. وبراهين .. وذاك هو غذاء العقل الذي لا يكون بعلم

---

(١) ينظر: السابق. صـ صـ٢٤٩، ٢٥٠.

(٢) السابق. صـ٣٩.

واحد، بل بعلوم تتكامل ويشد بعضها أزر بعض، فلا يكفيه طعام واحد، كما أن الجسد لا يؤدي مهمته بنوع واحد من الطعام، أو الشراب فهكذا العقل ليتمكن من الوصول إلى المزايا، ومعرفة الخصائص، ومن أهم عباراته الدالة على ذلك "ثم إنا نعلم أن المزية المطلوبة في هذا الباب مزية فيما طريقه الفكر والنظر من غير شبهة"[1].

الخاتمة

فهذا بحث موجز أردت به أن أكشف شيئاً من أثر العقل في بناء فكرة الإعجاز عند الإمام عبد القاهر الجرجاني وهو الشيء الذي توصل إلى طرائق معرفته بعد مكابدة وتطلع ، واشتياق ، ومعاناة حنين، ومن ثم كان نيله أحلى وبالمزية أولى ، وقد جعل ذلك مركوزاً في الطبع كما قال: "اعلم أن الشيء إذا نيل بعد الطلب له أو الاشتياق إليه ومعاناة الحنين نحوه كان نيله أحلى ، وبالمزية أولى، فكان موقعه من النفس أجل وألطف.."[2].

ومن خلال هذا البحث تبين أن إعمال الفكر ، وطول التدبر يستخرج من العلوم كنوزها، ويرينا بدائع زهورها وأَغْنى ثمارها، وقد استخرج عبد القاهر فكره في هذا الكتاب (دلائل الإعجاز) والذي قبله (أسرار البلاغة) من طول معايشته لفكر العلماء، حتى بات البحث عن المعرفة والتوْق في الوصول إليها شيء في سوس العقل وفي طبع النفس كما قال، ولو لم يفعل ذلك لباتت الفكرة في نفسه كامنة مستورة، ولكنه لما جلاها، وأفصح عن مكمنها ومرآها توصل كما قال "إلى فوائد لا يدركها الإحصاء، ومحاسن لا يحصرها الاستقصاء .."

---

(١) السابق. صـ٣٩٥.

(٢) أسرار البلاغة.

ومن هذه المحاسن أردت بناء هذه الفكرة البحثية الكاشفة عن أثر العقل في بنائها عنده، فجاءت كما ترى تحلل كيف توصل إليها عن طريق الروية والفكر، وأنه بعد أن تشبع بالفكرة، بل وبعد أن رَوَّاها في نفسه كتب المقدمات التي تقدم لها، سواء كانت مقدمات الكتاب كله، أو مقدمات الفصول التي أُقيم عليها، وهذا ما جعلته في مبحثين جليت فيهما خلاصة فكرته ؛ ليعلم القارئ أهمية هذه المقدمات ، وكيف أجملت دواخل الكتاب، ودواخل فصوله وأهمية هذه الفصول جملة في بناء العقل الذي يستطيع الكشف عن الأسرار ، وإبراز الخفايا والدقائق في معرفة بيان من بيان ، ونظم من نظم وتركيب من تركيب .. وكيف عظم كلام الله حتى فاق مُنَنَ البشر، وأن هذا ليس مقصوراً على رصف الألفاظ وبنائها، وما بينها من روابط، ولكن في الفكرة التي دلت عليها، والمعاني التي أومأت إليها، وكل كلمة في كلام الشيخ تحتاج إلى تأمل وحسن تدبر، وطول توقف؛ لأنها تكشف عن معانٍ تختلف باختلاف الأفكار، وتزداد بكثرة الألفاظ ويشعر القارئ لكلامه أنه يبني عقلاً، ويهذب فكراً ويشحذ بصيرة وبصراً، وهكذا استثمر التراث وبنا منه فكرته، وبتدبره وصل إلى بغيته.